الأهرام

١٩٩٧/٣/٣

الفـــن وقضايـــا الوطـــن:

أم كلثوم فى المعركة!

انتهت أم كلثوم من وصلتها الأولى على أشهر مسارح عاصمة النور باريس وإذا بيرونو كوكاتريس مدير المسرح يندفع إليها أثناء الاستراحة كالطلقة النارية ليطلب إليها أن تمنع مقدم الحفل من هذا الحديث الذى قدم به وصلتها الأولى والذى تحدث فيه عن العروبة وحتمية الانتصار على إسرائيل وتحرير القدس وسائر الأراضى العربية المحتلة، وقال كوكاتريس لأم كلثوم أن تذكر مقدم الحفل - وكان هو الاذاعى اللامع جلال معوض - أن تلك حفلة فنية وليست مناسبة وطنية.

محمد سلماوى

وهنا رفعت إليه أم كلثوم رأسها فى شموخ ودون أن تنهض من على الكرسى الذى كانت تجلس عليه أمام الفرقة الموسيقية، ونظرت إليه فى تحد قائلة: بل هى مناسبة وطنية!.. ثم ألقت علية درسا فى ارتباط مانقعله بقضية بلادها وقالت: إذا كنت تتصور أننى جئت إلى باريس لكى أغنى، فأنت مخطىء.. إن ما أتى بى إلى هنا هو واجب وطنى على الفن أن يقوم به فى أوقات المحن، وما قاله مقدم الحفل أنا التى طلبت إليه أن يقوله.

ثم قالت أم كلثوم لكوكاتريس الذى كانت تعلم أنه يهودى : ومع ذلك فإذا كان حديث مقدم الحفل لايروق لك، فأنت غير مجبر على قبوله.. بإمكاننا إلغاء الحفل ونحن نعتذر لعملائك من كل التزاماتك تجاهنا والواردة فى العقد، ثم استدارت أم كلثوم إلى أعضاء فرقتها وقالت لهم: لموا الآلات يا أولاد!

وإزاء ذلك تراجع كوكاتريس على الفور عن موقفه وكاد يخر ساجدا عند أقدام سيدة الغناء العربى وهو يقول: سيدتى ليكن لك ماتريدين، ولم يكن كوكاتريس قد انتهى من جملته حتى عاد صوت جلال معوض يسطع فى ساحة مسرح «الأوليمبيا» يشحذ همم المواطنين العرب من أجل تحرير الأرض العربية المحتلة فى المعركة التى من أجلها جاءت أم كلثوم إلى باريس.

كان ذلك فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ حين ابتليت البلاد بهزيمة قطعت أوصالها واتجهت كل موارد وسياسات الدولة لإزالة آثار العدوان بكل ماكان متاحا من إمكانيات «مادية وعسكرية وسياسية» فقررت أم كلثوم أن تجوب بلاد العالم تقيم الحفلات وتحول دخلها بالكامل لصالح المجهود الحربى.. وبدأت بالدول العربية الشقيقة، فزارت تونس وليبيا والسودان ثم المغرب وليبيا والكويت وأبوظبى، ثم جاءها بيرونو كوكاتريس صاحب أشهر المسارح الفرنسية على الإطلاق، وهو مسرح «الأوليمبيا» يعرض عليها أن تقدم عليه حفلتين غنائيتين.

لكن أم كلثوم طلبت أعلى أجر دفع فى هذا المسرح الذى غنت عليه أسطورة الغناء الفرنسى إديث بياف وكذلك إيف مونتان وشارل أزنافور وجوليت جريكو وغيرهم، والذى كان يعتبر أعلى محطة فى الرحلة الفنية لأى مطرب فرنسى، حتى أن دالييدا حين انحسرت عنها الأضواء فى فترة السبعينيات بسبب تغير الذوق العام فى فرنسا لم تستطع أن تغنى على «الأوليمبيا» وحين قبل كوكاتريس بعد ذلك بسنوات توقيع عقد ضخم للغناء مرة أخرى على مسرحه كان ذلك شهادة بأن داليدا قد عادت مرة أخرى إلى المكانة الفنية التى كانت لها فى السابق.

وكنت قد قابلت أم كلثوم لأول مرة فى نفس تلك الفترة حين كنت أحضر مع شقيقتى إحدى حفلاتها بينما تصدر الفيل، وعلم شاعر الشباب الراحل أحمد رامى أثناء حديث معه أننا أحفاد جدى لوالدتى محمد شتا الذى توفى عام ١٩٤٦ فأصر على أن يقدمنا لأم كلثوم.

وهنا بين الوصلتين سحبنا أحمد رامى من أيدينا ودخل بنا على أم كلثوم فقد كان - كما عرفت بعد ذلك - يهوى دائما البحث عن أى عذر ليدخل إليها أثناء الاستراحة. وقال رامى لأم كلثوم: انهما أحفاد فلان هل تتذكرينه؟، فحيتنا أم كلثوم تحية حارة وقالت: الباشا الكبير!.. إننى لا أنسى قط أى إنسان كان له فضل علىّ.

وكان محمد شتا رجل أعمال عصامى ترك عائلته فى بسوق بكفر الشيخ وجاء إلى القاهرة فصنع الملايين بساعديه وجده، وكان صديقا حميما لطلعت حرب باشا ومن هواة أم كلثوم، وسمع من طلعت أنه بعد نجاح فيلم «وداد» عام ١٩٣٦ فإن ستوديو مصر يفكر فى إنتاج فيلم جديد لأم كلثوم فى العام التالى وهو فيلم «نشيد الأمل» فقال محمد شتا: بل يجب الشروع فى هذا الفيلم فورا، وقرر محمد شتا أن يتبرع بميزانية إنتاج الفيلم بالكامل لحساب الاستوديو الذى أسسه صديقه الاقتصادى الكبير طلعت حرب، وهكذا تم بالفعل إنتاج فيلم «نشيد الأمل» عام ١٩٣٧.

وقد ظلت أم كلثوم تتذكر ذلك الجميل حتى أن محمد شتا حين زوج كبرى بناته إلى والدى قررت أن تكون هديتها له هى أن تحيى بصوتها حفل الزواج.

وحين قابلت بيرونو كوكاتريس فى القاهرة وعلم منى أننى قابلت أم كلثوم أخيرا رجانى أن اتصل بها تليفونيا لأخبرها بأنه قد وافق على جميع طلباتها المتعلقة بالأجر، فقد كان صاحب «الأوليمبيا» يعرف جيدا أنه إذا كانت أم كلثوم ستحصل على أعلى أجر دفع فى مسرحه، فإنه هو الآخر سيحصل على أعلى سعر تذكرة بيعت بهذا المسرح، فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى تشدو فيها أم كلثوم فى أوروبا، وكان كوكاتريس يعلم أن جمهورها سيكون من العرب المقيمين فى الخارج، ومن الفرنسيين الذين طالما

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

سمعنا عن تلك الأسطورة الفنية الفريدة ولم تواتهم الفرصة لحضور حفلاتها الغنائية، بالاضافة للعرب الذين سيأتون من العالم العربي نفسه ليكونوا شهودا لهذا الحدث الذائر حين ينطلق صوت أم كلثوم من قلب عاصمة الفن والثقافة والنور باريس.

واتصلت بالرقم الذي أعطاه لي كوكاتريس وطلبت التحدث إلى السيدة أم كلثوم فجاءني صوتها الهادئ، الوديع، فقد كان لأم كلثوم صوتان: الصوت الذي نعرفه في الغناء الهادر كالشلال والذي يكتسح كل ما في طريقه، والصوت الذي يعرفه من يحادثونها، فصوت الكلام عند أم كلثوم كان دائما هامسا رقيقا ولين كان واثقا من نفسه.

قلت لأم كلثوم: كنت سيادتك قد طلبت من مسيو كوكاتريس...

فقاطعتني بسرعة: بل هو الذي طلب مني..

قلت: أقصد أنه كان لك طلبات محددة وهو قد طلب مني إبلاغك أنه موافق عليها جميعا.

وهكذا تحدد موعد للقاء صاحب «الأوليمبيا» مع أم كلثوم حيث تم توقيع العقد بأعلى أجر دفعه للمسرح حتى ذلك التاريخ. وقد كان لأم كلثوم بعض الطلبات الأخرى مما يختص بتعضاء فرقتها الموسيقية وإقامتهم في باريس، وقد تمت الاستجابة لها جميعا.

وقد كان سبب لجوء كوكاتريس إليّ للحديث إلى أم كلثوم هو اللغة، أي لتسهيل التفاهم بين كوكب الشرق ورجل لايتحدث إلا الفرنسية وبعض الانجليزية الركيكة.

لكن الحقيقة أنه لم يكن هناك مشكلة لغة بالنسبة لأم كلثوم حيث كان بإمكانها أن تتحدث إلى كوكاتريس بالفرنسية إذا أرادت، فقد تمكنت إبنة قرية طماي الزهايرة من تعليم نفسها ليس فقط اللغة الفصحى والشعر الجاهلي الذي كانت تعشقه، ولكنا أيضا اللغة الفرنسية بالقدر الذي كان يمكنها من أن تتفاهم بها وتعبر عما تريد، وقد لاحظ ذلك من صاحبوها في رحلتها إلى باريس ومن بينهم مذيعة التليفزيون الراحلة سلوى حجازي والتي كانت تجيد الفرنسية كأهلها، بل كانت تكتب بها شعرا لم تكن تستطيع كتابته بالعربية.

ومع ذلك فإن أم كلثوم لم تكن تتحدث مع كوكاتريس إلا بالعربية وكان عليه دائما أن يبحث عمن يترجم له ماتقوله «مدام أم» كما كان يسميها. فقد كان يتصور أن أم هو اسمها الشخصي، أما كلثوم فهو اسم والدها، ولم يكن يناديها إلا باسم «مدام أم».

أليس في موقف أم كلثوم من لغتها العربية معنى ما، وهل لو كانت الطربة غير أم كلثوم كانت ستتمسك بلغتها؟.. أم كانت ستتباهى ببعض الكلمات الأجنبية التي التقطتها من هنا ومن هناك، فتشير السخرية بأخطائها اللغوية مثل مذيعات هذه الأيام التي تصر كل منهن على نطق إسم النسيلم الأجنبي أو الحلقة باللغة الأجنبية فيضحك من يعرفون اللغة.

ومع ذلك فقد كانت أم كلثوم شديدة الإعجاب بباريس وثقافتها وكانت تحب الإقامة بفندق جورج الخامس، كما كانت ترى أن المرأة الفرنسية أكثر بساطة في أناقتها مما يتصور المصريون الذين يعتقدون أنها تذهب إلى الكوافير كل يوم ولا ترتدي فساتين إلا من تصميم شانيل أو كريستيان ديور.

ولقد سألت سلوى حجازي أم كلثوم عن أكثر ما تحبه في باريس فقالت: باريس كلها جميلة.. وحين سألتها المذيعة عن مكانها المفضل في باريس قالت إن مايخفق له قلبها في باريس هو المسلة المصرية القائمة في أكبر ميادين العاصمة وأحد أكبر ميادين العالم، وهو ميدان «الكونكورد».

وسألتها سلوى حجازي: لماذا؟ فقالت أم كلثوم بلغة عامية بسيطة: لأنها من عندنا!

وفي حديث مماثل أثناء زيارة أم كلثوم للخرطوم سألتها ثانية مذيعات ذلك العصر الذهبي حين كانت المذيعة التليفزيونية أكثر من مجرد أصباغ تكسو الوجوه، وهي الراحلة أماني ناشد، عن انطباعاتها عن السودان وأهله فقالت أم كلثوم: السودانيين دول أهلنا.. إحنا وهم إخوات لأننا إحنا الاثنين أولاد النيل.

وأبدت أماني ناشد ملاحظة حول طريقة أكل السودانيين للأرز في احدى الحفلات الرسمية التي أقيمت على شرف سيدة الغناء العربي الزائرة، حيث كان السودانيون يقومون بتكوير الأرز بين أصابعهم بطريقتهم التقليدية ثم يقذفون به إلى الفم، فقالت أم كلثوم: وإيه الغريب في كده؟.. ما أنا كنت باكله بنفس الطريقة في طماي الزهايرة!

ولقد تذكرت تلك القصة بعد ذلك بحوالي ١٥ عاما، كانت أم كلثوم خلالها قد توفيت في عام ١٩٧٥ وكنت مدعوا ضمن وفد مصري لحضور مهرجان الفن في بغداد وإذا بنا نقرأ هناك حديثا مع ممثلة شابة مصرية كانت معروفة في الثمانينيات ادعت فيه أنها إبنة عبدالخالق ثروت باشا رئيس وزراء مصر الأسبق الذي لم تكن تعلم علي مايبدو أنه توفي قبل أن يولد والداها، وحكت كيف أنه قد اعتزل السياسة بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ويقضي الآن وقته كله بالبيت، كما حكت كيف كان يعارض اشتغالها بالفن لكنه رضخ في النهاية أمام إصرارها.

ولا أريد أن أجزم بأن الفنانة الشابة (التي اعتزلت الفن بعد ذلك) قد أدلت بالفعل بمثل هذا الحديث الذي لايمكن أن يدلي به طالب ابتدائي يعرف مبادئ التاريخ القريب لبلاده، إذ قد يكون حديثا «مفبركا» كما يحدث في بعض الأحيان، لكن هذا الكلام نشر على أي حال وكان مثار تندر جميع أعضاء الوفد المصري في المهرجان، والمقارنة بين مايفترض أن الفنانة الشابة قد ادعته في حديثها الصحفي وما أكدته أم كلثوم في حديثها التليفزيوني بكل ثقة من أنها كانت تأكل بيديها في طفولتها بالقرية، إنما يثير مقارنة ذات مغزى قد يكون فيها تفسير لما كان عليه الفن في الماضي وما آل إليه الآن، أليس في ذلك أيضا معنى ما؟

هل يمكن لفنانينا أن يتخذوا من موقف أم كلثوم من قضايا وطنها نموذجا يحتذى؟.. نموذجا لاشك أنه غير موجود الآن.

لقد كانت أم كلثوم أثناء الحرب تبعث برسالة يومية بصوتها عبر الاذاعة للجنود على الجبهة، وبعد الحرب وتتويجتها المفجعة قالت أم كلثوم: «لن يغفل لي جفن وشعب مصر يشعر بالهزيمة.. من أجله ومن أجل مصر سأجوب العالم كله...» وبالفعل جابت أم كلثوم العالم تجمع الأموال بصوتها الذهبي من أجل المعركة فكانت تتبرع بأجرها بالكامل للمجهود الحربي، فما أن حلت الهزيمة في يونيو ١٩٦٧ حتى كانت أم كلثوم في نوفمبر من نفس العام تقف فوق مسرح «الأوليمبيا» في باريس لتؤكد للعالم أن العرب لم ينكسروا وأنهم لابد منتصرون.

وإلى جانب تبرع أم كلثوم بأجر حفلاتها بالكامل فقد كانت تجمع أيضا التبرعات التي وصلت إلى مئات الآلاف من الدولارات، وفي الكويت كانت كل التبرعات من سبائك الذهب حيث جمعت أم كلثوم ٣٥ كيلوجراما من الذهب الخالص وتبرعت هي بـ ١٦ كيلوجراما أخرى.

وبعد زيارة باريس زارت أم كلثوم عاصمة الثلوج موسكو لنفس الغرض لكن قبل موعد الحفل وصلها نبأ رحيل الرئيس جمال عبدالناصر فألغت حفلاتها وعادت إلى القاهرة.

فلنسأل الآن أين الفن والفنانون من القضايا القومية؟.. إن القضية لايجب أن تكون فقط الحرب، فربما كانت القضايا المزمنة لاتقل خطرا عن خطر الحرب ذاتها، فقضية مثل الأمية أو تنظيم الأسرة يمكن أن تقتل بالمجتمع بمثل ماتقتك به الحروب.

إن مارلين ديتريش وموريس شيفالييه كانا دائمي الزيارة للجنود في الحرب العالمية الأخيرة، لكن إليزابيث تيلور لم تنتظر حربا لكي تجمع تلك الملايين من أجل أبحاث مرض «الإيدز» ولا انتظرت الممثلة الراحلة أودري هيبورن حربا هي الأخرى لكي تضع نفسها تحت تصرف الأمم المتحدة في حملاتها من أجل أطفال العالم.

لقد نشط الفنانون عندنا أثناء كارثة الزلزال عام ١٩٩٢ بشكل ملحوظ سواء هنا أو في الخارج، لكن بعيدا عن الحروب والكوارث، فلايبدو أن أحدا يهتم بالقضايا القومية إلا في النادر القليل، وهنا يجب أن نذكر الجهود التي تقوم بها الفنانة الكبيرة نادية لطفي من أجل مرضى الفشل الكلوي، وهو من أخطر الأمراض في مصر ومن أكثرها انتشارا بعد أمراض الكبد الفيروسي.

إن الفن لايكون فنا إلا إذا ارتبط بقضايا الوطن الكبرى، وبدون ذلك يصبح الفن مجرد تسلية رخيصة لا موقف لها ولا مضمون، فالفن منذ القدم كان مرتبطا بالقضايا الكبرى للبشرية، وبإمكاننا النظر والنظر إلى الفن المصري القديم الذي لم نعرف التاريخ المصري إلا من خلاله، فقد كان هو السجل الحي لانتصارات تحتمس ورمسيس ولديانتي آمون وآتون وذلك من خلال الرسوم الجدارية والأشعار الجنائزية التي حفظت لنا هذا التاريخ، والتي كانت أول درس للبشرية في كيفية ارتباط الفن بالمجتمع.. إن المصريين القدماء هم أول من عرف الفن، وتكاد تشعر من مشاهدتك لفنونهم أنهم لم يخترعوا الفن إلا لخدمة قضايا الوطن، فما بال بعض أحفادهم يتصورون أن الفن هو فقط هز الوسط!

إن الفن، كما يقول الموسيقار الروسي الكبير مودست موسورجسكي، ليس هدفا في حد ذاته، وإنما هو وسيلة لمخاطبة البشرية...

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية